

لعبرة في وفاة الملك

ديمقراطية الموت

للأستاذ محمود غنيم

الموت آية ، ولكن موت الملوك آية كبرى ؛ والموت عظة ،
ولكن موت الملوك عظة بالغة

بالأمس تهجم الموت على ذلك الحرم المقدس ، واقتحم أسوار
هذا الحصن النيع الذي تقضى الميرون حياء من منابته ، ولا
تلجبه الشمس إلا بعد استئذان ؛ اقتحم الموت بلاط ابن اسماعيل ،
وحفيد ابراهيم ، والجالس على عرش فرعون ، فلم يحدّد للزيارة
ميّاداً ، أو لم يحدّد له ميّاداً ، ولم يلزم الباب حتى يُسمح له
بالدخول كما تقضى المراسيم عند زيارة الملوك ، ثم مديده في أناة
ورقق ، يل في عنف وقسوة ، فسل روح الملك من جسمه ، كما
تسل كل روح من كل جسم ، ثم انصرف هادئاً مطمئناً ، كأن
لم يفعل شيئاً ، فإذا الحرس واجم ، والسلاح كليل ، والطب
يترك حياء ، وجبين العلم يتصبب عرقاً ، وإذا الشرارة تنطلق
في القصر ، فيندلع لهيبها في مصر ، ويسمع دويها في الخافقين ؛
يا لله ! أيعرض فؤاد كما يعرض أى فرد ممن يظلمهم عرش
فؤاد ؟ كئنا نظن عرشه حتى تتحاماها الأسد ، وتغنيه عوادي الدهر ،
فما بال جرائم الرض تنفذ إلى ذلك الحى ، وما بال ميكروبايه
تتسرب إليه ، وما بال أهون خلق الله شأننا يفتك بأعظم خلقه
شأننا ؟ حقاً إنه الموت ! ديمقراطى ، لا يميز بين الملوك والسوقة ،
ولا يدين بالفروق بين الطبقات

فن كل ما كتب بالفرنسية لا توجد إلا خمسة أو ستة
كتب تصلح للطبقات الجاهلة في المدن والقرى

يعلّمون الشعب القراءة ، ولكنهم لا يضمنون له الكتب
اللائقة به ، فهم إما أنهم يقدمون له مؤلفات كتبت لنيره أو
أوراقاً محشوة بالنقائص والوقاحة كمن يقدم سلاحاً لطفل ليخرج
به نفسه

« المصبة » يتبع

ألكسندر كيباج
من المصبة الأندلية

يمرض الفقير ، فيرى أهله بالتقصير ؛ يقولون : تهاون
فاستفحل الداء ، أو أساءوا اختيار الأطباء ، فما بال الملوك يتقبلون
على فراش المرض ، ويقاسون ألم الزرع ، ويتجرعون كأس الحمام
أيها البرق . توعدك مزاج الملك فطير الأنباء . أيها الطيارات
احملى من مختلف الأصقاع نفط الأطباء . أيها العلم هات أحدث
ما تمخضت عنه معامل الكيمياء . وأنت أيها الموت ماله
جامداً في مكانك لا تريم ، هازا كفتيك استخفافاً ، مفتر الثغر
عن ابتسامه مروعة ، تسرح طرفك بين هؤلاء وهؤلاء ، في
سخرية واستهزاء ؟

أهكذا يفعل بالملوك ؟ لك العزاء والسوة أيها الفقير ! ليس
المرض وفقاً عليك ، وليس الموت وفقاً عليك . إنك لا تتمذب
وحدهك أيها المسكين ، ولكن الملوك أيضاً يتعذبون ! الملوك الذين
تنظر اليهم نظرة التقديس ، ويخلع عليهم ثوب الألوهية ، وتقبطهم
في يقظتك ، وتحمل بنعيمهم في منامك ، والذين تعتبرهم مثلك
الأعلى ، وتعتقد أن الخطوب لا ترقى إليهم ، وأن لهم عيشاً أنعم
من الحرير وألين من الساء : هؤلاء يمرضون أيضاً ويموتون ،
ولعلمهم في عيشهم محسودون بما هم منه باكون !

هذا هو ابن اسماعيل ، وحفيد ابراهيم ، كُستأصل نواجزه
بلا نخدر ، فيحتمل راضياً أو كارهاً تعلقاً بالحياة ؛ وتشتق لنته
ثم تخاطب بلا نخدر ، فيحتمل راضياً أو كارهاً تعلقاً بالحياة ؛
وتُحرم عليه الأسرة ، فينطرح على كرسيه ثم ينام أو لا ينام ،
فيحتمل راضياً أو كارهاً تعلقاً بالحياة ؛ وأخيراً هاهى ذى الحياة ،
تتدلل تدلل الهيفاء ، وتجنفو فتسرف في الجفاء . وها هو ذا شيخ
الموت يقتحم البلاط ، رغم كل احتياط !

ماذا تقول النشرات الطبية ؟ — القيع ! التعفن ! التسمم !
أسماء تشداوها ألسنة العامة ، وكأننا كنا نخلها وفقاً على
أبدانهم ، وما كنا نظن أنها تعرف الطريق إلى ذوات الملوك ،
ذوات الملوك المصونين عن الميث ، الموضوعين فوق القوانين ،
الذين لا تلتهم الألسن إلا بالهتاف ، ولا الأفواه إلا باللثم ، ولا
تطأ الشفاه أسأؤهم إلا همساً ، ولا تلتهم الأيدي إلا بالسلام إيماء
من بعيد ؛ في هذه الذوات المقدسة تسرى سموم الموت ، وينشب
أظفاره الموت ، والموت ديمقراطى لا يميز بين الملوك والسوقة ،
ولا يدين بالفروق بين الطبقات

« لا أريد أن أموت » هكذا يقول الملك ؛ والملك إذا قاتل

لو بذل عرشه في سبيل نظرة من أبيه أو كلمة يسمعها من فيه
ما سمح الموت ، لأن الموت ديموقراطي لا يميز بين الملوك والسوقة
ولا يدين بالفروق بين الطبقات

هكذا تتساوى الرؤوس عند الموت بالرؤوس ، أو تتساوى
الرؤوس بالأذنان ، كما تتساوى الرؤوس بالرؤوس ، أو
الرؤوس بالأذنان عند انحذارها من الأصلاب . الكل من
التراب ، والكل إلى التراب . ومالي لا أذهب إلى أبعد من
ذلك ، فأزعم لك أن الناس كما يستوون في طرفي الحياة ،
يستوون في الحياة ؛ وأزعم أن في الحياة نصيباً مشتركاً من
السعادة ، وآخر من الشقاء ، كل الناس فيهما سواء . وما دام
كل إنسان لا يقنع بما هو فيه ، بل يمتد نظره إلى أبعد منه ،
ويعتني على دهره الأمانى ، فيبسط له الدهر إحدى يديه ، ويقبض
الأخرى ، فلا يقنع الإنسان عند البسط ، ولا يأس عند القبض ،
فهو أبداً آمل ، كادح ، مخفق ، ناجح ؛ أقول مادام أنه لا سبيل
إلى الكمال المطلق ، إما لأنه غير موجود ، أو لاستحالة الوصول
إليه ، فالتناس في الحقيقة سواء ، وما اختلافهم في الجاه والسال
والمرآكز الاجتماعية إلا أمور اعتبارية

لا أستطيع أن أعرف السعادة ما هي ، غير أن الذي لا أشك
فيه أنها ليست المال وحده ، وليست الجاه وحده ، وليست
الجمال وحده ، قد تكون مزيجاً من ذلك كله ، وقد تكون
غير ذلك كله ، وقد يكون الألم جزءاً من ماهية السعادة ، أو شرطاً
من شروطها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف تستطيع أن
تضع الفوارق بين السعادة والشقاء ، أو تولى بأصبعك إلى
شخص معين فتقول : هذا شقي ، وإلى سواه ، فتقول : هذا سعيد

أيها الراحل العظيم ، لقد تبوأ سرير الملك

في ساعة يذر الأمانة بحمها مثل النجوم طوالماً وأفولاً
ولقد خلفت سرير الملك ، وما تزال الجدود عائرة ، والأمره
متناثرة ؛ ولكنك عشت ملكاً ، ومث ملكاً . والآن قرى
مضجك ، فلا قرار مع الحياة ؛ والتمس في باطن الأرض الراحة
التي خاتتك على ظهرها . إن للملك لها ، وإن للشعوب من الأحوال
الثقال ، ما تنوء بحمله ظهور الرجال ؛ وإن لك في جوار ربك
لعمرك أى عوض . أحسن الله عزاءنا فيك ، وبارك لنا في
خلفك المحبوب

محمود فهمي

كوم حمادة

فكلمته مرسوم نافذ ، وإذا أشار فأشارته قانون محترم ، وإذا أوما
فأيمأته أمر واجب الطاعة ، ولكن الموت — قاتل الله الموت —
لا يحسن الخضوع للمراسيم ، ولا يعرف كيف ينفذ القانون ،
ولا ينتحي أمام أوامر الملوك

مات الملك في الشرق وكان ابنه في الغرب ، وقد فصل القضاء
بين الاثنين بحر وبرين ، أليس من حق الراحل أن تتكحل
برؤية ابنه عيناه قبل أن يفارق الحياة ؟ أمنية يظفر بها المغمور
الصعلوك ، بله الأمراء والملوك ؛ أمنية يظفر بها المحكوم عليه وهو
من جبل الشنقة قاب قوسين ، ولكن الملوك يتمنونها فلا يجدون
إليها سبيلاً . إيه أيها الموت ! هلا تريت قليلاً حتى يؤوب
القائب ؟ إيه يا جنود سليمان ! هلا حملت التازح البعيد على
أجنحتك التي حملت عرش بلقيس ؟ لا هذا ولا ذاك ، إذن
فليتزم الراحل العظيم ، بكتاب ابنه الكريم ، ولكن كتاب
الولد البار لا يكاد يصل إلى الوالد الواقف على حافة الأبدية
حتى يضمن الموت أخيراً كما ضن أولاً ، وحتى ترتعش اليد رعدة
الموت ، فيتدحرج الخطاب ، وينسدل بين البصر وبينه حجاب ،
ويلفظ القارئ نفسه الأخير ، ويكون آخر ما قبضت عليه يمينه
كتاب ابنه المحبوب ، وآخر ما قام به اسم ابنه المحبوب ، وآخر
ما انطبع في مخيلته صورة ابنه المحبوب

ها هو ذا الملك مسجى على سرير من ذهب لا يرد إليه
الحياة ، مغطى بأكفان من الحرير لا تخفف من خشونة الموت
شيئاً ؛ أمامه مباحر من عنبر لا تنفس من سكرة الردى ! النمش
هو النمش ، سجلته الأعتاق ، أم جرت الخيول الصنق ؛ والقبر هو
القبر من طين وماء ، أو من مرمر ورخام ، في صحراء جرداء ،
أو في جوف هرم من الأهرام . أطلقوا المدافع ، ونظمو المواكب ،
وأعلنوا الحداد ، ونكسوا الأعلام ، فلن تغيروا من حقيقة الموت
شيئاً . الموت هو هو ، ديموقراطي لا يميز بين الملوك والسوقة ،
ولا يدين بالفروق بين الطبقات

مات الملك فورث ولى عهده تاجاً وصوراً لجاناً ، ونهراً عذبا ،
ومملكة فيحاء ، وأمنة مطيعة مخلصه ، ولكنه بجانب ذلك فقد
عطف الأب البار ، وحنان الوالد الرحيم ؛ فليت شعري أخسرة
تلك الصفقة أم رابحة ؟ وأية الكفتين هي الراجحة ؟ ، لست
أدرى ، ولكن الذي لا شك فيه أن كل شيء يمضي ويمود ، حتى
العروش والنيحان ، ولكن الميت لا يمود ، وأن الملك الجديد